لون الثّلج

فؤاد كحل

ها هو الموتُ يأتي
من القلبِ يأتي
من الكونِ يأتي
فارضاً حالةً لانطفاءِ الأبدْ
حالةً لضياعِ النّدى
في الجسدْ..

* * *

إنها أحاسيسُنا
تغادرُ أجسادَنا
فتهيمُ الروحُ في اللاشيءْ
غارقةً في الظلماتْ
كيف أصبحتِ الأيامُ
ملتقىً للموتْ
ومفترقاً للحياةْ؟
فانطفأَ الشروقْ
لاجمارَ في... دمِهِ
واشتعلَ الغروبْ
يستنيرُ من... غدِهِ
ليذهبَ كلُّ شيءٍ
إلى الزوالِ و.. التلاشي؟
ثم.....!
يأتي الثلجْ
تأتي الدهشةْ
اليقظةُ و... الحلمْ
فيرجعُ الناسُ من النسيانْ
وتزهرُ الأغاني

إنها الأنشودةُ الأولىٰ إذن!
اتّضاح التضاريسِ
في أدهرِ الذاتْ...
إنها الحرية الأولىٰ إذن! :
- يعودُ الحبيبُ إلى قلبهِ
- القلبُ إلى روحهْ
- ... وتهرعُ الروحُ
إلى فضائها..!
كيف غادرتْنا
هذه الوجوهُ
كلَّ هذا الوطنْ؟
في غيابكَ يا زمنَ الأقحوانْ..؟
كيف عادتْ ولو... لثوانْ؟
وأنتَ تهمي
على النوافذِ المحطَّمه
والأناسِ الغارقينْ
والأماني الهاربهْ؟
تحيطُ بنا
لنكتشفَ البداياتِ
لنعرفَ أننا كنا وُلدْنا
قبلَ هذا الموتْ..
تمنحُنا فضاءَنا
مشعشعاً أوطانَنَا
في زمانٍ حالمٍ بالاندلاعْ...
وتحاصرنا أبداً:
في مكانٍ قابلٍ للاتساعْ...

فيبدأُ الحلم من جديدٍ
ويشرقُ القلبُ بالولاده؟!
كيف تأتي وتذهبُ
حين تشاءْ
بادئاً حالةً لصياغةِ أغنيةٍ
ووطنْ؟
أنتَ تهمي على الروحِ
تهمي...
فنركضُ فوقَ البياضِ عراةً
و.. تغمرُنا
مشعلاً دفءَ أجسادنا
بعد أن غادرتْنا البلادْ..
... وكنا نسينا
بأنّ جسداً
أنّ روحاً لنا
أننا ها هنا!
أنّ في قلبنا رقصتْ كلماتْ
أن هطْلكَ فاجأنا في الطفولة
أن لنا أغنياتْ!
أنتَ في القلبِ تهمي
تعيدُ البياض إلى أصلهِ
فتوحّدُ ألوانَها الشمسُ
يقطفُ كلَّ ربيعٍ لأطفالهِ حُلَلاً
ويعيدُ الترابُ تكوّن أحلامهِ بالنّهوضْ..
إذن، تستعيدُ النهايةُ أوّلَها
الخلقَ
أحلامَها...

وبقايا لذاكرةٍ غادرتْ
أو تكادْ!
كيف كلُّ قتيلٍ رأى روحهُ؟
كيف عانقتِ الأرضُ حالاتِها؟
كيف طارتْ بأجسادنا أنهرٌ
وبأرواحنا قبَّراتْ...؟
وتأتي المبشراتُ المدرعات
صباحاً... رواحاً
فنغدو لمن يعاني
سلاحاً... جناحاً
تحتهُ تطفو نحورُ الدماءِ... حولهُ يمتدّ بحرُ
الفضاءِ...
إنها أحاسيسنا
خلايانا الأولى
أرواحُنا التي لا يُفرَّقُ فيها:
بين الموجِ والرمالْ
بين الفضاءِ والترابْ
بين زهرةِ الفكرِ
وعصفورةِ الجسَدْ!
وتعودُ أخيراً إلينا
كطيرِ المسافاتِ
من سفرٍ مطري
تُعيدُ ملامحَنا..
فيولدُ الأسلافْ
أولئكَ الذينَ استشهدوا
ودفنوا في باطنِ الجبالْ
بالقربِ من مشارفِ الأرياف
وحولهمْ:
تكوّرَ الوطنْ
يشعلُ أغنياتِهِ...
ويزهرُ الأحفادْ
أولئكَ الذين مازالوا
يمارسونَ الحلمَ دون رهبةٍ
كما الفراشْ..
ويوقنونْ
بزمنٍ معدَّلٍ للأرضْ
منبتينَ البذورَ التي
لم يكن يتسنّى لنا بعثُها
نحن جيلَ التسلُّطِ
في زمنِ الثورةِ الغاربهْ!
صارخينَ بأعلى طموحاتهم:
للغدِ الوردُ
والقمحُ
والطرقاتْ...
للغدِ الأفقُ
والغيمُ
والقبراتْ...
... ثم تأتي الحياةُ
فتخططُ الروحُ لفلسفةٍ جديدهْ
لانتصارْ،
ورقصةٍ أكيده...
لاتساعْ،
يفتّقُ الفضاءْ...
وانتشارْ،
على مدى النشوءْ...
لوطنٍ يشرقُ من قلبينْ
يقاومانِ الكوارثْ
ويخلقانِ الأماني..
يمتلئان ببعضَيْهما
ويوسّعانِ مداهُما
إلى آخرِ الكونْ
يعيشانِ الأطفالَ القادمينْ
والكوكبَ النازفَ
على سكاكينِ الجزارينْ،
وحياةً لم تُنجزْ نفسَها بعدُ
وبقايا دفءٍ
في جسدٍ و.. ذاكرهْ...
يتوهّجانْ،
ويخطّطانْ:
لانضاحِ وردهْ
وعدالةِ خنجرْ
لغموضٍ... وأسئلهْ
لموتٍ... وحياهْ
ويذهبانِ إلى مستوطنٍ هائلٍ
ممتلىءٍ بالمدى
وبازدهارِ الأمدْ
تنتشرُ فيهِ الذاتْ
وتمتدُّ الطرقاتْ
في أبعادٍ لانهائيّهْ
لكونٍ
وكائنٍ
لا ينتهيانْ...

* * *

ها هو الثلجُ يهمي
على الأرضِ يهمي
من القلبِ يهمي
ويهمي...!
خالقاً حالةً
لاشتعالِ الجسدْ
حالةً
لاتّحادِ النّدى
بالأبدْ

دمشق